٢ ـ إجابة على سوء فهم الغرب للإسلام[١]

يبدو للوهلة الأولى أن هناك درجة كبيرة من اللاتماثل في العبارة "الغرب والإسلام"، فالغرب - وهو مفهوم جغرافي أساسًا - يوضع غالبًا في مواجهة الإسلام - الديانة. ولكن هذا اللاتماثل منطقي؛ لأنه لم يعد بالإمكان مساواة الغرب بالدين. فالغرب لم يعد مسيحيًا في جوهره، وإنما أصبح في علنه وفعله مملكة حياة، دنيا ملحدة، لا أدرية، تعتقد بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، فنادت بالمادية وارتفعت فيها رغبات المستهلكين فوق كل صوت؛ لذلك إذا وقع صراع بين هاتين الحضارتين - وهناك عقائديًا صراع أفكار بينهما[٢] - تكون المواجهة بين عالم تشده روابط خارقة للطبيعة وآخر يفتقر إليها، عالم ثابت في إيمانه بالله، وآخر غارق في غرور إنكاره التام للذات الإلهية. ويجب علينا أن نضع هذه الحقائق بعيدة الأثر نصب أعيننا عند تناول مسألة تختص برجل غير عادي صاحب بصيرة ثاقبة ومسلم نموذجي كان مدركًا تمامًا للمخاطر التي حفت وتحف بالإسلام في هذا

(١) محاضرة الدكتور هوفمان في إسلام أباد (٢٤ فبراير ٢٠٠٠).
(٢) صراع حضارات أم صراع أفكار؟ محب الرحمن، الميزان، المجلد ١، العدد ١، لندن، ١٩٦٦ .

المنعطف التاريخي. ولا شك بأن المرحوم كرم مراد (رحمه الله) كان أحد أعظم تَقدِمات باكستان]والعالم الإسلامي [للدين الحنيف.

بعض المفاهيم الخاطئة:

مفهوم الذاكرة الجماعية أو الوعي الجماعي بين الأمم هو حقيقة واقعة، وتاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام إثبات كافٍ لذلك، ولا يمكن استيعاب مفاهيم الغرب الخاطئة المعاصرة للإسلام - وهناك بحر متلاطم منها - دون معرفة جذورها التاريخية، والسبب في ذلك أن الماضي المؤسف لا زال حيًا يتفاعل في النفوس.

الشك في صدق الديانة: فمنذ فجر الإسلام اعتنق العالم المسيحي المحيط به تفسير يوحنا الدمشقي[1] بأن الدين

(١) لمزيد من التفصيل، انظر: صورة النبي محمد ﷺ في الغرب، دراسة أجراها موير، مارجوليوث، وات، جبل محمد بوابن، المؤسسة الإسلامية، ليستر، المملكة المتحدة، ١٩٩٦، ص ٨-٩"... شكل يوحنا الدمشقي رأس حربة الهجوم الغربي، وقد ركز في جدليته على طبيعة الله في الفكر الإسلامي، ووضع ذلك في وثيقة أصبحت كتابًا مرجعيًا للفقهاء المسيحيين. وقد أصر على إنكار نبوة محمد ﷺ والإسلام بدعة محمد كما رآه. وادعى في جدليته البيزنطية وهجومه العنيف على الإسلام أن إله الإسلام لا يتقبل العقيدة المسيحية؛ ولذلك فإنه لا يمكن أن يكون الإله الحق، ومحمد ﷺ بالتالي ليس نبيًا حقًا.."

الجديد إنما هو خليط انتقائي من أفكار يهودية ومسيحية ساء فهمها - وإنما هو في الحقيقة بدعة يهودية- مسيحية. وقد أسيء بوجه خاص فهم "الإسرائيليات" في آيات القرآن الكريم على أنها قصص توراتيه مختصرة، بينما هي في الواقع تحذيرات من قصص الماضي مستقلة عن المحتوى التاريخي.

لذلك لا يزال الغرب حتى اليوم يرى أن حضارته يهودية -مسيحية- بينما هي في الواقع يهودية -نصرانية- إسلامية من حيث الشكل والمضمون نظرًا للميراث الإسلامي الهائل في فلسفة الغرب وعلومه ورياضياته وفنونه، وهو ميراث واضح رغم التعنت في تجاهله. وباختصار لا زال الغرب يرى أن الجهل بالإسلام لا يعد نقصًا في الثقافة.

انطباعات خاطئة عن الإسلام:

هناك مفهوم خاطئ رئيس آخر له علاقة بالسرعة الهائلة لانتشار الإسلام من شبه الجزيرة العربية وصولاً إلى إسبانيا وآسيا الوسطى والهند، فنحن المسلمين نعلم بأن هذا لم يتحقق كما يدعي الغربيون، بالحديد والنار، ولكنه انتشر في معظمه سلمًا للأسباب الثلاثة التالية:

١) الكثير من النصرانيين في تلك الأيام كانوا موحدين بطبيعة المسيح عليه السلام على الرغم من اختلاف مذاهبهم كالآريين والنستوريين والأقباط، وكانوا كالفاتحين المسلمين لا يؤمنون بألوهية المسيح عليه السلام أو ازدواجية طبيعته.

٢) رحبت تلك الشعوب بالحكم الإسلامي الذي امتاز بكونه أقل قمعًا وبنظامه الضريبي غير العشوائي، وقد جاء الإسلام بحكم قانون يسري في السلم كما في الحرب.

٣) ترجمة النصارى للقرآن الكريم والأدب الإسلامي إلى لغات العالم المختلفة رغم أنها كانت مدفوعة بنوايا تشوبها الريبة بهدف إشعال حرب إعلامية ضد الإسلام، كانت نعمة على المسلمين.

لم يرَ السواد الأعظم من النصارى الأمور على هذا النحو، فلكي يشبعوا غرورهم وينقذوا ماء وجوههم، رأوا أنه لا بد لهم من إلباس الإسلام ثوب الشياطين بحياكة أساطير، بعضها لا يزال شائعًا حتى يومنا هذا، ألا وهو أن الإسلام دين عدواني، أسماه ماكس ويبر "دين حرب" يسعى إلى شن حرب مقدسة[١]

(١) الإسلام والمعالجة السياسية للحداثة، أرماندو سالفاتوري، ردينج، المملكة المتحدة، ١٩٩٧، ص ١٠٢ .

وقد شوهوا صورة رسول الله ﷺ كما لم تشوه صورة أحد من قبل أو من بعد[١] - وأظهروه في صورة مدعٍ شهواني شبقٍ متعطشٍ للدماء، وذهبوا في ادعاءاتهم إلى أنه لربما كان كاردينالاً نصرانيًا مرتدًا من كرادلة الكنيسة الشرقية.

كل هذه الادعاءات القذرة رغم غرابتها وبعدها عن الواقع لا تزال في التداول حتى يومنا هذا، وهي تظهر بوضوح في كل ادعاء بما يسمى بالإرهاب الإسلامي، وفي كل هجوم على رسول الله محمد ﷺ والذي بلغ ذروته في كتاب سلمان رشدي الشهير.[٢] لقد كان تشويه صورة النبي ﷺ إلى درجة أن الكنيسة الكاثوليكية رغم اعترافها أخيرًا قبل خمسة وثلاثين عامًا بالإسلام طريقًا للخلاص[٣] لا زالت ترفض قبول رسول الله محمدًا ﷺ مرشدًا على تلك الطريق.

إنكار القرآن: هذا يعني بالطبع عدم قبول القرآن الكريم (كلمة الله) كتابًا مقدسًا، وهنا نتحدث عن انطباع خاطئ ثالث،

(١) ومحمد هو النبي، آن ماري شيمل، مونشن، ١٩٨١، ص ٧ أيضًا، انظر: صورة النبي محمد.
(٢) آيات شيطانية، سلمان رشدي، بنجوين جروب، إنجلترا، ١٩٨٨م.
(٣) حدث هذا في المنشور البابوي العام، (١٩٦٥).

التاريخ يحدد الحاضر. لقد كانت أول ترجمة للقرآن إلى لغة أوروبية هي اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر لبطرس المبجل في دير كلوني بمدينة توليدو، لا لرغبته في التعرف على الإسلام، بل لحاجته إلى تلك الترجمة في حربه الإعلامية ضد الإسلام. وحقيقة الأمر أن حماس الصليبيين للانطلاق في رحلتهم المحفوفة بالمخاطر كان بسبب القول لهم بأن المسلمين: "لا يؤمنون بوجود الله، بل يعبدون محمداً".(١) ومن آثار تلك المعادلة أن المسلمين عرفوا في تلك الأيام ولا يزالون حتى اليوم بـ"المحمديين" وأن البريطانيين في الهند كانوا يجمعون "القانون المحمدي".

طبعت ترجمة بطرس المبجل بعد أربعمائة سنة من إنتاجها في بازل (سويسرا) بناء على طلب مارتن لوثر، وقد ظهر الإسلام في أوروبا آنذاك ممثلاً بالحملات العثمانية الموجهة ضد فيينا، وكان الأتراك في رأي مارتن لوثر أداة من أدوات الله أرسلوا لمعاقبة البابا وكل الكاثوليكيين معه على

(١) للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول حملات التشويه الإعلامية في العصور الوسطى، انظر: الإسلام والغرب - صنع الصورة، نورمان دانيال، ١٩٨٠، الطبعة الثانية المعدلة، اوكسفورد، ١٩٩٣م.

إفسادهم للدين المسيحي. وفي الواقع جاءت الترجمات اللاحقة للقرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية الحية ومن بينها اللغة الألمانية التي ترجم إليها كل من يوهان لانج Johann Lange (١٦٨٨) وديفيد فريدريتش ميجرلين David Friedrich Megerlin (١٧٧٢) مشيرة إلى الخطر العسكري التركي. وأسمى بعضها القرآن بـ"الإنجيل التركي"، بينما أسماه البعض بـ"الكرآن"، أو "القوانين والضلالات التركية".

لذلك يرى الغربيون حتى يومنا هذا الإسلام خطرًا يتهددهم – بمن فيهم صمويل هنتنجتون[١] الذي يعرف جيدًا أن التحديث يمكن أن يأتي دون تغريب، وأن الغرب لا يمكن أن يعد نموذجًا كونيًا.[٢] وعندما يتحدث في "صراع الحضارات"[٣] عن الحدود الدامية مع الإسلامية، فإنما هو

(١) صمويل هنتنجتون هو أستاذ علوم الحكومة بجامعة ئيتون ومدير معهد جون أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد.

(٢) الغرب: فريد وليس كونيًا"، صمويل هنتنجتون، الشؤون الخارجية، نوفمبر/ديسمبر ١٩٩٦، ص ٣٨، ٤١؛ انظر أيضًا: صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي، صمويل هنتنجتون، بنجوين بوكس، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٦، ص ٢٠ .

(٣) "صراع الحضارات"، صمويل هنتنجتون، الشؤون الخارجية (نيويورك)، المجلد ٧٢، العدد ٣، صيف ١٩٩٣، ص ٢٣-٤٩ .

يتحدث عنها بروح دفاعية: محاولاً إنقاذ القلعة الأمريكية من جحافل المسلمين الغازية -الخوف والقلق من الاجتياح الإسلامي - وهذا المفهوم الخاطئ عن الإسلام هو أحد تلك المفاهيم التي تصعب إزالتها.

أعراض الحداثة: لقد وصلنا في حديثنا الآن إلى القرن الثامن عشر، بعيد ديكارت Descrtes بقليل، فيما يعرف بـ"عصر التنوير"، والذي لا يزال قائمًا اليوم كمشروع الحداثة وككل مذاهب الدنيوية المطبقة وعدم الاكتراث بالدين، وهو مذهب إيديولوجي أورد البروفسور خورشيد أحمد[1] تحليلاً جيداً له. ففي ذلك الوقت كانت الكنائس المسيحية، الكاثوليكية والبروتستانتية على حد سواء مستمرة في كبتها للتقدم العلمي والبحث الحر في كافة الميادين. وكان الناس يعيشون في ظل ممالك لاهوتية تشجع سيطرة رجال الدين، وكانت الظلامية قد تجاوزت عصر النهضة الأوروبية.

(١) "الإنسان ومستقبل الحضارة: منظور إسلامي"، البروفسور خورشيد أحمد، انكاونترز، المجلد ١، العدد ١، ماركفيلد، ليستر، المملكة المتحدة، ١٩٩٥.

لذلك اتصف مفكرون عمالقة مثل عمانوئيل كانت Immanuel Kant[١] جوتولد أفرايم ليسنج Gotthold Ephraim Lessing[٢]، فريدريك الأكبر ملك بروسيا Frederic the Great of Prussia،[٣] فولتير Voltaire،[٤] ويوهان وولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe[٥] بالشجاعة الفائقة والفائدة القصوى التي حققوها لأوروبا بتحريرهم الفكر الأوروبي من الاضطهاد الكنسي. وكل أولئك الأشخاص، سواء كانوا من القائلين بمذهب الربوبية في اعتقادهم بوجود الله دونما إيمان بديانات منزلة، أو موحدين يؤمنون بإله واحد ولا يعتقدون بالثالوث النصراني المقدس، كانوا دون تفكير باعتناق الإسلام

(١) عمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤)، فيلسوف ألماني، قدم الكثير من الإسهامات المبتكرة والمؤثرة في الفكر، قضى معظم حياته (١٧٥٥-١٧٩٧) يدرس في الجامعة في مسقط رأسه كونجزبرغ (تعرف اليوم باسم كالينيغراد في روسيا)، مؤلف كتاب "نظرية السماوات" (١٧٥٥)، نقد العقل المجرد (١٧٨١)، نقد العقل العملي (١٧٨٨)، نقد القرار (١٧٩٠).

(٢) جوتولد افرايم ليسنج (١٧٢٩-١٧٨١)، درامي وكاتب ألماني. للاطلاع على رأي ليسنج الإيجابي المدهش في الإسلام، انظر: كارل-جوزف كوشل، دوسلدورف ١٩٩٨م.

(٣) فريدريك الثاني الأكبر (١٧١٢-١٧٨٦)، ملك بروسيا (١٧٤٠-١٧٨٦)، وهو الذي حول بروسيا إلى قوة أوروبية عظمى.

(٤) فرنسوا-ماري أرويت (١٦٩٤-١٧٧٨)، أديب وفيلسوف وعالم ومعلم أخلاقي فرنسي.

(٥) يوهان وولفجانج فون جوته (١٧٤٩-١٨٣٢)، شاعر وأديب وسياسي ألماني: مؤلف الدراما الشعرية الشهيرة "فاوست" (١٨٠٨).

متأثرين بالإسلام إلى درجة كبيرة؛ لأنه دين توحيد لا وجود فيه للرهبان ولا للقرابين المقدسة ولا التعاليم التي تفرضها الكنيسة. غير أنهم رغم ذلك انتقدوا الإسلام نقداً غير منصف، يقصدون بذلك حقيقة مهاجمة الكنائس المسيحية بشكل غير مباشر ودون مخاطرة - وهو في النهاية ما دفعهم لمهاجمة الإسلام.

منذ ذلك الحين أصبح الإنسان الغربي وعقلانيته مستقلين بذاتهما، فأنكر عرش الألوهية ونصب نفسه مقياساً لكل الأشياء. وأصبح الدين وبشكل متزايد شأناً خاصاً، وحلت محله باطراد العلوم الطبيعية والتي تحولت بدورها كمذهب علمي ومذهب عقلي[١] إلى شبه ديانة. فبعد كارل ماركس Karl Marx،[٢] وتشارلز داروين Charles Darwin،[٣] وسيجموند

(١) حركة فلسفية نشأت عن محاولات في القرن السابع عشر لدراسة الكون باعتماد العقل بأساليب استدلالية ورياضية، وليس بالتجربة الحسية.

(٢) كارل (هاينريتش) ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)، فليسوف واقتصادي وثوري ألماني.

(٣) تشارلز روبرت داروين (١٨٠٩-١٨٨٣)، عالم طبيعة بريطاني، صاحب فكرة أن الكائنات الحية تتطور بالاختيار الطبيعي. مؤلف أصل الأجناس بالاختيار الطبيعي (١٨٥٩).

فـرويد Sigmund Freud،[١] وفـريدريك نيـتـشـه Friedrich Nietzsche،[٢] انحدر الدين إلى عالم الخرافات والأساطير والأوهام - وأصبح شيئًا لمن هم أقل ذكاءً - شيئًا يضمحل مع تقدم البشرية في سعيها الناجح إلى كشف آخر أسرار الوجود. ومع نهاية القرن التاسع عشر، وجد نيتشه نفسه قادرًا على إعلان "موت الله".[٣]

التعارف مع مشروع الحداثة هذا متماسك جدًا رغم فشله الذريع، وقد أدى عصر العقل، والذي مر عليه ٢٠٠ سنة حتى الآن، إلى نشوب حروب لا تعد ولا تحصى، بما في ذلك أكبر حربين عرفهما العالم، استخدمت خلالهما أسلحة كيماوية وذرية وقنابل عنقودية فتاكة دون تمييز. كما شهد العالم تجارة الرقيق، ومعسكرات التعذيب، والإبادة الجماعية لليهود والغجر والمرضى النفسيين، والتطهير الستاليني لملايين الأبرياء، وسياسة التمييز العنصري، والتطهير العرقي في البوسنة

---

(١) سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩)، عالم نفس نمساوي ورائد في التحليل التنفس، مؤلف "تفسير الأحلام" (١٨٩٩).

(٢) فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠)، فليسوف ألماني، رفض المسيحية وأخلاقياتها وسعى إلى "إعادة تقييم كل القيم".

(٣) دي فروليتش فيسنافشتن، فريدريك نيتشه، الكتاب ٥، ص ٣٤٣، ١٨٨٦

وكوسوفو والشيشان - وغير ذلك كثير. كل هذه الفظائع الوحشية ارتكبت خلال عصر العقل الذي لم يعد بشيء سوى تقدم البشرية ورفاهها وحريتها.

ويخطئ من يفترض أن مواطن الضعف الهائل هذه قد أدت إلى نشوء أي شك حقيقي بتفوق النموذج الغربي. بل على العكس، فبعد انهيار الشيوعية تحول الإحساس بأن الغرب هو "خاتمة التاريخ" المنطقية التي لا تضاهى (فرنسيس فوكوياما)[١] إلى إحساس بالنصر الثقافي.[٢] وهذا غريب فعلاً إذا أخذنا في الاعتبار التطورات الواضحة في القرن العشرين وعلى الأخص في الفيزياء والكيمياء الحيوية وعلم الكونيات. وبينما نجد العلماء في يقينية القرن التاسع عشر[٣] مقتنعين بأنهم يستطيعون كشف قوانين الكون، نراهم اليوم

(١) "نهاية التاريخ"، ذا ناشونال انترست، فرنسيس فوكوياما، ١٦، صيف ١٩٨٩م.

(٢) للاطلاع على نقد ممتاز لهذا المفهوم، انظر: "الإسلام ونهاية التاريخ"، علي المزروعي، المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية، المجلد ١٠، العدد ٤، هرندون، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، شتاء ١٩٩٣، ص ٥١٢-٥٣٥ .

(٣) النظرة الفلسفية بأنه لا يمكن إدراك الواقع إلا من خلال علوم معينة والمشاهدة العادية.

وقد أصبحوا أكثر تواضعًا. وفي الواقع، وبعد مرور مائة عام على ماكس بلانك Max Planck،[١] وإلبرت أينشتاين Albert Einstein،[٢] وفيرنر هايسنبرج Werner Heisenberg،[٣] لا زلنا نجهل ماهية المادة، وماهية الضوء، وما الذي يحدد ميل الكتلة، وكيف نشأت الحياة، وما هو مصدر الوعي، وكيف بدأ الكون، وكيف يمكن أن ينتهي. كما أننا لا ندرك ما هو الزمن أو الطاقة، وحتى قوة الجاذبية لا تزال أحجية لم نتوصل إلى حلها. وهذا يعني أن معادلة أينشتاين الشهيرة E=mc2 لا تعني شيئًا في الحقيقة؛ لأننا حقيقة لا نعرف أيًا من عناصرها.[٤]

---

(١) ماكس كارل أرنست لودفيج بلانك (١٨٥٨-١٩٤٧)، فيزيائي ألماني: واضع النظرية الكمية، وكان أيضاً أستاذاً بجامعة كيل (١٨٨٠-١٨٨٩) ثم بجامعة برلين (١٨٨٩-١٩٢٦).

(٢) ألبرت أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥)، عالم فيزياء أمريكي ولد في ألمانيا (ألوم)؛ يعرف بورقته الثورية العالمية الشهيرة حول نظرية النسبية والكتلة والطاقة، إلى جانب شهرته في الرياضيات والفيزياء.

(٣) فيرنر كارل هايزنبرج (١٩٠١-١٩٧٦)، عالم فيزياء ألماني، حاز على جائزة نوبل عام ١٩٣٢م.

(٤) جوشن كيرتشوف، أستاذ الفلسفة والفيزياء بجامعة برلين، والذي سبق وأن تجرأ على المطالبة بعلوم طبيعية بديلة تفسح المجال للمسائل الروحية: روم، ديمونسيونن، فلتموديل، ميونيخ، ١٩٩٩م.

وهنا أيضًا يمكن أن نعتقد أن الرجل الأوروبي العادي قد أدرك الآن - في غياب المادة في الفيزياء الكمية الحديثة بعد نيوتن - أن هناك مكانًا لعالم الروح والله. وهذا الافتراض خاطئ. فكل ما وصل إلى الرجل الغربي العادي وبأبسط الطرق هو أن كل شيء نسبي. والاستنتاجات التي تم التوصل إليها من صورة أينشتاين الزائفة هي استنتاجات قاتلة، وأصبحت العقيدة العصرية تقول: كل شيء جائز، لا تصدروا أي أحكام على القيم، استمتعوا بالحياة وافعلوا ما يحلو لكم.

وكأن هذا لا يحمل إساءة كافية لمن اعتنقوا قيمًا أزلية مثلنا نحن. بل أسوأ من ذلك: فالعالم الحديث يتشبث بأشد قناعات الحداثة، ألا وهي فكرة أن الله غير موجود لاستحالة إثبات وجوده. وهذا أمر هام وأساسي لموضوع البحث.

يجب أن ندرك أن عمانوئيل كان في كتابه الشهير "نقد العقل المجرد "Critique of Pure Reason"[1] قد قطع جازمًا - وبما يشبه ما جاء به الأشعري قبل تسعمائة سنة - أن

(١) كريتيك (١٧٨١) وكريتيك " (١٧٩٠)، عمانوئيل كانت، أعماله الكاملة، المجلدات ٣ و٤ و١٠، فرنكفورت، ١٩٩٦ م.

السعي وراء الغيب لا يؤدي بصاحبه إلى أي نتيجة. فمنطقنا الذي يعتمد على الإدراك الحسي غير قادر على التوصل إلى استنتاجات صحيحة عن الغيب. وقد أكد لودفيغ ويتجشتاين Ludwig Wittenstein في القرن العشرين مقولة كانت من خلال نقده اللغوي للمسألة الغيبية، مظهرًا أن العيب في أفضل حالاته ما هو سوى لعبة كلمات يمارسها البشر.

يمكن أن يتفهم المسلمون هذه الآراء. أفلا نؤمن بضرورة الوحي الإلهي لمعرفتنا بأننا لا نستطيع الوصول إلى الحقيقة بدونه؟ وعندما نتناول الحقيقة الثانية التي يتجلى الله من خلالها، ألا وهي الكون، نقرأ في كتاب الله العزيز:

بسم الله الرحمن الرحيم﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[1]

هذا يعني أن مشاهدة خلق الله، يقوي الإيمان في نفوس الموقنين بوجود الله، ولكن لو كانت مشاهدة الطبيعة تفرض الإيمان، لما وجدنا كل هذه الجحافل من العلماء تنكر وجود الله، بل لم نكن لنجد عالمًا واحدًا ينكر وجود الله.

(١) القرآن الكريم، الذاريات: ٥٠ .

وتبدأ المشكلة عندما يختار الناس في مواجهة استحالة غيبية يمكن الوثوق بصحتها، الافتراض بأن الله غير موجود، فيتحولون بذلك من ذكاء اللاأدرية إلى غباء الإلحاد، وتلك هي حال أوروبا في الغالب، فالناس في أوروبا لا تطيق عدم التأكد، ولا تستطيع المحافظة على توازن بين الإيمان والنكران، فيتحولون إلى ملحدين في واقع الممارسة، ويخشون أي شكل من أشكال الدين، ويرون فيه عودة لظلامية واضطهاد وتعصب القرون الوسطى الأوروبية: خطر يتهدد كل ما تمثله الحداثة.

هل الإسلام دين صرامة وتزمت وحرمان من المتع؟

يؤجج هذا الرهاب مخاوفهم من أن وجود غالبية مسلمة في مكان ما في الغرب نتيجة نسب النمو العالية للعائلات المسلمة يمكن أن يؤدي تلقائيًا إلى تردٍ ملحوظ في نوعية الحياة؛ فالغرب مدمن بطبيعة تكوينه على أشياء يحرمها الإسلام: السجائر، والكحول، والصور الخلاعية، والجنس غير المشروع، والموسيقى الصاخبة، والإجهاض، واللواط، والسحاق، كأسلوب حياة بديل. وهذا مرد الخوف من الإسلام اعتقادًا بأنه دين صارم متزمت يحرم متع الحياة. أو بتعبير أبسط: إن

مقاومة هؤلاء لدعوتنا إلى الإسلام لا تنبع من دفاع عن الاعتقاد المسيحي بالثالوث المقدس - فهذا آخر همهم؛ إنهم يستميتون في الدفاع عن تمسكهم بلحم الخنزير وشرب الجعة ذات المحتوى الكحولي العالي، ومعانقة الحبيبة.

وهناك أشكال أخرى من سوء الفهم كفكرة أن الإسلام جبريٌّ في الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الفقه الإسلامي شبه تلمودي يهتم بحرفية الشريعة أكثر من اهتمامه بهدفها. ولكن رغم ذلك فإن هذه الأمور تعد بسيطة؛ لذلك دعونا ننتقل إلى ثلاث مسائل حيوية أسيء فهمها، هي من نتاجات القرن العشرين فقط، مسألة الديموقراطية، ومسألة حقوق الإنسان، ومسألة حقوق المرأة. وتعد هذه المسائل من أهم العقبات التي تعيق نجاح التوسع الإسلامي في الغرب عند هذا المنعطف.

الإسلام معادٍ للديموقراطية:

يفخر الغرب بتطور الديموقراطية والتي تجلت في معظمها منذ أواخر القرن الثامن عشر في سويسرا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، ثم انتقلت بعد ذلك إلى كافة أرجاء المعمورة تقريبًا. وقد أصبحت الآن كل الأنظمة

الملكيـة في أوروبا دسـتورية، وهناك مـساواة في أحـقـيـة التصويت، والعمليات الانتخابية صادقة، والسلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية منفصلة. القضاء مستقل، البرلمان يسيطر على الحكومة، ويطبق القانون على الجميع.

يمكن أن يقـاطعني أحـدهم عند هذا الحـد ويطلب مني التوقف عن ذكر هذه العموميات المعروفة. وأقول: إن المشكلة هي أن كل النقاط التي ذكرتها ليست أشياء شائعة، بل نادرة في معظم أرجاء العالم الإسلامي، ومن هنا تنطلق مقولة: إن الإسلام والديموقراطية هما كالنار والماء، وهو انطباع خاطئ جدًا بالفعل.

هل يفتقر الإسلام إلى مقومات حقوق الإنسان؟

يفخر الغرب أيضًا بوضع شرائعه لحقوق الإنسان، بغض النظر عن محدودية وانتقائية تطبيقها، كما هو الحال على سبيل المثال في كشمير أو فلسطين أو الشيشان. والمشكلة هنا هي اعتقاد الغرب بأن حقوق الإنسان لم تكن معروفة للبشرية قبل إعلانها لأول مرة في بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا. وبالتالي يتم تصنيف الشريعة الإسلامية على وجه الخصوص

على أنها بائدة وبربرية، ويعد الإسلام فعليًا غير قادر على حماية أبسط حقوق الإنسان.

هل الإسلام يغالي في قوامة الرجل على المرأة؟

نرى في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا - وفي دول كثيرة أخرى - نسبة أعلى من النساء المتزوجات والعازبات اللواتي يعتنقن الإسلام مقارنة بالرجال. ورغم ذلك تبقى هناك حقيقة صارخة وهي أن النساء الغربيات ككل هن أعدى أعداء الإسلام. والسبب في ذلك هو الاعتقاد الخاطئ السائد بأن الإسلام هو دين رجال، تنحدر المرأة فيه إلى مواطنة من الدرجة الثانية في أفضل الحالات، وإلى أمَة مستعبدة ذليلة في أسوئها.

والأكيد أنه ما من دخان بلا نار، فالرجال المسلمون تسيرهم في الغالب هواجس السيطرة على المرأة، فسروا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على مدى ١٤٢٠ سنة منذ الهجرة على هواهم. فلو أعطيت المرأة الحقوق التي كفلها لها الإسلام في القرآن الكريم، لما وُجِد هذا الاعتقاد الخاطئ، والذي رغم كل سخافته، يرتبط باعتقادين آخرين هما: أن

المسلمين يتهمون في الآن الواحد بكونهم فاسقين جداً ومتزمتين جداً في علاقاتهم الجنسية. فمن جهة نرى الرجال الغربيين بفعل كونهم ضحايا لتعميتهم الثقافية يحسدون الرجال المسلمين على ما يفترض بأنه قدرتهم على الحصول على عدد غير محدود من النساء، ويغرقون في نزوات قصص خيالية عن الشرق وليالية الحمراء التي تزخر بمفاتن الجواري والمحظيات ورقصهن الشرقي شبه عاريات. ومن جهة أخرى لا يتقبل أولئك الأشخاص أنفسهم حجاب المرأة ولباسها المحتشم الذي يشبه لباس الراهبات المسيحيات، ويعترضون على ذلك الخزي الأخلاقي الذي يسعى على قدمين. والآن وبعد أن قمنا بتحديد الاعتقادات الخاطئة الرئيسة، دعونا نتناول كلاً منها على حدة. وأود أولاً أن أسرد بعض الملاحظات العامة وأسدي بعض النصح:

كيف نجيب؟

إجراء تغييرات نوعية: لقد أصبح من الواضح أن كل الاعتقادات الخاطئة السائدة في الغرب اليوم ترتبط بتطورات تاريخية. ولا يمكن لأي كان أن ينجح في الدعوة إلى الإسلام

إلا إذا كان مدركًا لتلك السمات الثقافية؛ لهذا فمن المسلَّم به أن الدعوة في كل منطقة من مناطق العالم يجب أن تتم من خلال أشخاص مسلمين ولدوا أو نشؤوا في تلك الحضارة بالذات. فأنت لا تستطيع تغيير ما بأنفس قومٍ إلا إذا عَرفتَ ما الذي يدفعهم إلى التصرف على نحو ما هم عليه.

هذه مشكلة يواجهها العديد من المساجد في الغرب القائمة على أسس عرقية أو لغوية أو حتى طائفية، كالتجمعات البارليفية في برادفورد (المملكة المتحدة). فهذه المساجد، مثلها مثل المساجد "التركية" أو "الألبانية" في ألمانيا، لا تنشر الإسلام في محيطها غير المسلم إلا فيما ندر، وينظر إليها جيرانها كما لو كانت جماعات فنون شعبية "فلكلورية" لا كجماعة دينية.

وهناك مشكلة أيضًا في الكثير من الكتيبات والنشرات والمجلات التي يتلقاها الغرب من منطقة جنوب آسيا؛ فالكثير منها ـ واحسرتاه ـ يلقى في القمامة قبل توزيعه. لماذا؟ لأنها تؤدي إلى نتائج سلبية في مجتمع يرى القيمة الأكبر في شكل المادة المطبوعة. فإذا كانت نوعية الورق أو الغلاف أو التصميم

أو الصياغة الإملائية رديئة، فقدت المادة المطبوعة التي تدعو إلى الإسلام كل قيمة؛ لذلك يجب أن يرد الإسلام على الاعتقادات الخاطئة من خلال أشخاص يتكلمون لغة الشعوب المستهدفة بالدعوة دون أي أثر للكنة أجنبية.

اتباع سياسة التفاعل العملي الإيجابي: عندما يواجه الإنسان بمثل هذا الفيض من التحيز ضده والتحامل عليه، فإن أفضل طريقة لمواجهته هو عدم الاعتذار أو التبرير أو الانفعال، بل التفاعل العملي والإيجابي إزاءه، وهذا يبدو في ظاهره بسيطًا، ولعل أفضل أسلوب في التفاعل الإيجابي هو الاتباع التام لنمط الحياة الإسلامي وسط المجتمع الغربي بلا زيادة ولا نقصان. يجب على المهاجرين المسلمين أن يصبحوا مثالاً حيًا يناقض الصورة التي يتهمهم الغرب بها، وبعد أن يراقب الغرب هذا النمط لفترة من الزمن ويرى أن المسلم لا يضرب زوجته، ولا يقطع الأيدي، وأن الأطفال نظيفون، وأن الآباء يعون مسؤولياتهم المدنية، وأن المشروبات الكحولية بعيدة عن حياة المسلم كل البعد - يعي الناس الحقيقة، بدءًا بفضول وانتهاء بتقدير. ولنفس هذا السبب، يعد إلقاء المحاضرات عن

التاريخ والتعددية الثقافية للأندلس في العصور الوسطى أكثر فائدة من الإعلان عن محاضرات ذات توجهات دفاعية عن مواضيع مثل: "المرأة والإسلام" وغير ذلك.

تكوين وسائل إعلام متفاعلة: هذا لا يعني أن ينشط المسلمون في الغرب في محاربة التمييز والادعاءات الخاطئة وعلى الأخص في وسائل الإعلام. إن هناك منظمات - مثل مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية Council on American-Islamic Relations (CAIR) في أمريكا الشمالية - تقوم بهذه العملية بكفاءة عالية، ولكن لذلك حدود؛ فوسائل الإعلام الغربية والتي تسيطر عليها في الغالب قوىً صهيونية، سوف تبقى دائمًا صاحبة اليد العليا، تتجاهل أخبارنا السارة وتتنافس أصواتها لتعلن في حبورٍ أخبارنا السيئة، كما أننا لا نستطيع أن نأمل في تغيير الانطباعات الغربية من خلال إنشاء وسائل إعلام إسلامية في الغرب، إلا في فضاء الإنترنت على الأغلب، فالقاعدة العامة هي أن المسلمين فقط يشاهدون البث التلفزيوني الإسلامي. ومن جهة أخرى، يجب على المسلمين أن يحاولوا اختراق النظام الإعلامي القائم بتدريب صحفيين مسلمين وبالمشاركة في اللعبة الإعلامية

وفقًا لأصولها، فيمكن على سبيل المثال أن يتعلم المرء كيفية كتابة "رسالة إلى رئيس تحرير" بصيغة مناسبة.

التعاون وليس المواجهة: يجب على المسلمين أن يتفادوا الوقوع في شرك التعامل مع الغرب المعادي على أنه مسيحي، ولوم المسيحية على كل المصاعب التي يواجهها المسلمون في الغرب، صحيح أن الأمريكيين كقاعدة عامة لا زالوا يرتادون الكنائس، ولكن أوروبا قد ارتدت عن المسيحية إلى درجة مخيفة؛ مخيفة؛ لأن الدعوة إلى الدين الحنيف تكون أسهل بكثير إذا كانت موجهة إلى أشخاص يؤمنون على الأقل باليوم الآخر. ويجب على المسلمين في الواقع أن يقنعوا جيرانهم المسيحيين في الغرب بأنهم جميعًا كمسلمين ومسيحيين يتأرجحون في مركب واحد في خضم محيط متلاطم من الإلحاد يتزايد حجمه يومًا بعد يوم، ونجد أن القساوسة ورجال الدين المسيحيين يتحولون في الغالب إلى أصدق حلفاء للمسلمين في سعيهم إلى الحصول على حقوقهم المدنية.

التفسير العقلاني لرفعة الإسلام: نتناول الآن محتوى الرد الإسلامي؛ من الضروري أن يتذكر المسلمون الخلفيات

الفلسفية الغربية التي سبق شرحها، وهذا يعني أنه يجب عليهم أولاً تناول مسألة وجود الله قبل المحاورة على أساس كتاب الله، وإلا فإنهم سيعدون غير جديين. وكما أسلفنا، لم يعد بإمكان المسلمين اليوم أن يأملوا في أن يصغي إليهم أحد عندما يعددون ما يسمى "إثباتات وجود الله" سواء كانت مبنية على السببية أو علم الوجود أو التاريخ. ولكنهم يستطيعون تحقيق اختراقات حاسمة بالحوار بناء على الاحتمالات العلمية والقول بأن ما نراه في الطبيعية يشير إلى أن درجة احتمال وجود الله عالية جداً. وهذه هي الطريقة التي اتبعها الفيلسوف البريطاني ريتشارد سوينبورن Richard Swinburn في كتابه "وجود الله The Existence of God "[١].

عند ذلك فقط يستطيع المسلمون القول بأن إنكار وجود الله ليس من المنطق أو الحكمة - وهو الرهان الشهير لباسكال[٢] - وإظهار أن العقلانية قد أودت بالبشرية إلى شفير الكارثة العالمية. ويمكننا بفضل نقاد غربيين مثل دانيال

(١) أكسفورد، ١٩٧٩م.
(٢) بلايز باسكال (١٦٢٣-١٧٧٢)، عالم رياضيات وفيزياء ولاهوت فرنسي.

بل Daniel Bell [١] ووليام أوفلز William Ophuls [٢] أن نشير إلى أعراض الأزمات الحضارية الحادة في العالم الغربي كما وصفها الغربيون أنفسهم: تفتت العائلة، وانتشار الإدمان على المخدرات، والعنف، والفتور العام في العلاقات الاجتماعية، والأضرار البيئية التي تهدد استمرار حياة الإنسان على وجه الأرض، والدمار النووي الذي لحق بمدينتي هيروشيما وناغازاكي (وهنا يمكن أن نسأل ما إذا كان تدمير المدينتين قد نتج عن قنبلة "مسيحية" نظرًا لتسمية القنبلة النووية الباكستانية بالقنبلة "الإسلامية").

عند هذا الحد يمكن أن يسألنا سامعونا الغربيون عما يدخره الإسلام في جعبته لمواجهة تلك الشرور والويلات، وهنا يأتي دورنا نحن كدعاة مسلمين.

الإسلام كبديل: الفكرة هنا ليست التماس التسامح الديني، لقد كتب يوهان ولفجانج فون جوته: "لا يمكن أن يكون التسامح سوى مرحلة عابرة تؤدي إلى القبول؛ فمجرد تحملنا

(١) التناقضات الثقافية للرأسمالية، لندن، ١٩٧٦م.
(٢) صلاة الميت على السياسة الحديثة. مأساة التنوير وتحدي الألفية الجديدة، بولدر، كولورادو، ١٩٩٧م.

لشخص آخر إهانة له"[١]. فإذا اعتبرنا هذه المقولة صحيحة، يجدر بالمسلمين في الغرب بدلاً من أن يطلبوا التسامح الديني، أن يكونوا حازمين إلى درجة عرض "الإسلام كدين بديل"[٢] وكدواء ناجعٍ، وأن الغرب بأمس الحاجة إليه إذا أراد إنقاذ حضارته من الضياع. أي أنه يتوجب على المسلمين أن يعرضوا الإسلام كحل لمشاكل الغرب المستعصية: كدين يساعد الغرب على استرداد وحدة العائلة، وبر الأبناء، ولحمة الإخاء، والتسامح العرقي، والصحوة من المسكرات والمخدرات، وزوال الإجهاد، وتحقيق الاستقرار النفسي، واحترام الحياة، والصبر، وحتى التحصين الاجتماعي ضد الإيدز. فلنعرض الإسلام بالطريقة التالية: الإسلام وسيلة لإصلاح النسيج المهترئ للمجتمع الغربي حيث أصبح الناس يتواصلون عبر الإنترنت ولكنهم وحيدون أمام شاشات حواسيبهم إلى درجة التوحُّد المرَضي. لقد أسهم الأفارقة الأمريكيون المسلمون الذين طهروا أزقتهم سلمًا من المخدرات والجريمة بمجرد اتباعهم للإسلام

(١) ماكسيم أوند رفلكسيونن، العدد ١٢١

(٢) هذا أيضًا اسم كتاب ألفه كاتب هذا المقال الدكتور مراد ويلفريد هوفمان، الطبعة الرابعة، ميونيخ ١٩٩٩

دينًا، في إزالة العداء السائد للإسلام أكثر من أي داعية في أي مكان.

الإسلام - رائد الديموقراطية: لا يمكننا أن نتفادى المواجهة المباشرة لثلاثة أمور هي الديموقراطية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة، وهذا يعني أنه يجب علينا كمسلمين أن نتوقف عن التظاهر بأن الإسلام لا يتوافق والديموقراطية[١]. فكما قال الشيخ يوسف القرضاوي: "إن من يدعي أن الديموقراطية إلحاد لا يعرف شيئًا عن الإسلام والديموقراطية"[٢].

لنتذكر ونتعظ بأن أبا أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - كانوا أول رؤساء دولة منتخبين في التاريخ، ولنتذكر أن رسول الله ﷺ التزم بقرار الشورى قبيل معركة أحد رغم شعوره كقائد ميداني بعدم صواب ذلك القرار، ولنأخذ في

(١) انظر: ديموقراطية دون ديموقراطيين؟ غسان سلامة، لندن ١٩٩٤؛ للاطلاع على رأي أكثر تفاؤلاً، انظر "الديموقراطية والنظم القائمة على الشورى: تحليل مقارن"، عبده رشيد موتن، مجلة انكاونترز نصف السنوية، المجلد ٣، العدد ١، ليستر، المملكة المتحدة ١٩٧٧، ص ٣-٢٠؛ الإسلام والديموقراطية والدولة والغرب، حسن الترابي، تامبا، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٩٣ .

(٢) جريدة الشرق الأوسط، لندن، مقابلة منشورة في ٥ فبراير ١٩٩٠م.

اعتبارنا أيضًا أن الديموقراطيات الغربية لا تترك كل شيء لقرار الأغلبية؛ فدساتيرهم كلها تحتوي على نصوص لا يمكن أبدًا تغييرها، كتوزيع السلطات مثلاً، وفي الديموقراطية الإسلامية كذلك لا تكون لسلطة تشريع القوانين الوضعية (البرلمان) صلاحية مطلقة في مواجهة دستور الأمة، أي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كمصدرين لشرع الله؛ لذلك فلنترك عنا تناول الديموقراطية عقائديًا، ولنتعامل مع حقيقتها: فإنما الديموقراطية آلية لمراقبة من هم في السلطة، وهي مشكلة عامة يواجهها الناس أجمعين، مسلمون وغير مسلمين.

الإسلام - نصير حقوق الإنسان: أما في مجال حقوق الإنسان، فيجب علينا أن نزيل الضرر الذي نجم عن الغياب التام للحقوقيين المسلمين. فمن المفهوم أن الفقه الإسلامي لا يميز بين أصحاب المكانات العليا وعامة الناس، كذلك لا يمكن للمسلمين القبول بأن البشر يشرِّعون الحقوق، بل هو الله الذي يهبها، ورغم ذلك كان من السهل إثبات أن الله في آيات كتابه العزيز يكفل حماية كل الحقوق الأساسية التي ينادي بها

الغرب؛ فالقرآن على سبيل المثال في تحريم القتل يشبِّه ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[١] أفلا يعني هذا في شرعة الحقوقيين كفالة لحق الإنسان في الحياة؟ وألا تعني العقوبات الصارمة التي تُنزل بالسارق كفالة لحق الإنسان في ماله؟

لا نعني بهذا أن حقوق الإنسان في الإسلام كما نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة مماثلة لإعلان حقوق الإنسان في الولايات المتحدة أو مجلس أوروبا على سبيل المثال. فهناك فروقات من حيث العقوبة الفعلية، بما فيها عقوبة الإعدام، ومن حيث المعتقد الغربي الخاطئ بتساوي الرجال والنساء أمام القانون. فنحن كمسلمين نعلم بأن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾[٢] بيد أن المسلمين يستطيعون تحسين صورتهم بشكل كبير فيما لو تعاملوا مع الحوار الدائر حول حقوق الإنسان بأسلوب بنَّاء، دون أن يتصرفوا وكأنهم يخفون شيئًا.

(١) القرآن الكريم، الذاريات: ٣٢ .
(٢) القرآن الكريم، آل عمران: ٣٦ .

مسألة حقوق المرأة[١]: أما من حيث المرأة في الإسلام[٢]، فالمسلمون يدركون:

- ❖ أن أكثر من نصف سكان العالم من النساء. وأي حضارة لا تستغل مواهبهن وقدراتهن لا بد وأن تخسر في النهاية.
- ❖ أن تقليد "الحريم" كان مخالفًا للشريعة الإسلامية.
- ❖ أنه لا يوجد سند إسلامي صحيح لوجوب غطاء الوجه في الإسلام.

دعنا نتناول هذا الموضوع بشكل أكثر تحديدًا، فالآية الثالثة من سورة النساء[٣] تتناول تعدد الزوجات، وهي ضمن

---

(١) آراء حول حقوق المرأة وتفسير الآيات القرآنية حول حقوق المرأة كما وردت هنا هي اجتهادات العالم نفسه وتعبر عن رأي العالم وحده، ويحتفظ المحرر/الناشر بحقه في إبداء رأي مختلف.

(٢) يعد حسن الترابي أكثر الذين بذلوا في سبيل الحصول على حقوق المرأة التي ضمنها القرآن. انظر كتابه: النساء والإسلام والمجتمع المسلم (١٩٧٣)، لندن ١٩٩١م. انظر أيضًا: الإيمان والحرية - حقوق الإنسان للمرأة في العالم الإسلامي، مهنز أفخمي، لندن، ١٩٩٥م.

(٣) القرآن الكريم، النساء: ٣ ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾.

النصوص التي تتناول اليتامى. والسؤال الذي يطرح هنا هو: لماذا لا يستشهد الرجال في الغالب بالآية ٤:٣ من بدايتها؟ لماذا يتظاهرون بأن الآية تقول - ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ - ويتجاهلون مطلع الآية - ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾؟ لماذا يتصرف البشر وكأنهم أعلم من الله بتجاهلهم الآية ١٢٩ من السورة نفسها - ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾؟

لماذا نجد الكثير من الرجال الذي يدعون بأنهم يلتزمون بالسنة النبوية الشريفة يبررون ضرب زوجاتهم بنص الآية[1] ٣٤ من سورة النساء، وهم يعلمون تمامًا بأن رسول الله ﷺ لم يضرب أبدًا أيًا من زوجاته؟ متى يدرك الرجال أن المعنى الحقيقي للنص - ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ - لا يعني رفع مكانة الرجل فوق مكانة المرأة، بل يقدم الرجل على المرأة حماية لها؟

---

(١) القرآن الكريم، النساء: ٣٤ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً ﴾.

متى يدرك الرجال أن الآية ٢٢٨[١] من سورة البقرة لا تقول بأن الرجل متفوق على المرأة، بل هي تتناول إجراءات الطلاق فقط؟ ومتى يتقبلون أن ما يسمى - ﴿ آية الحجاب - الأحزاب ٥٣﴾[٢] - تعنى فقط بالفصل بين المجلس الخاص والمجلس العام - وأن الكرامة الفريدة التي وهبها الله لأمهات المؤمنين تميزهن عن سائر النساء؟

لا يمكن للإسلام أن يستمر في الانتشار في الغرب ما لم يقر المسلمون في جميع أنحاء العالم بإعطاء نسائهم الحقوق والحريات التي وهبها الله إياهن والتي عددناها في نقدنا آنف الذكر على شكل أسئلة.

---

(١) القرآن الكريم، البقرة: ٢٢٨ ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

(٢) القرآن الكريم، الأحزاب: ٥٣ ﴿ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

لقد ذكرت المخاوف التي تسبب بها الافتراض بأن وجود غالبية مسلمة في دولة غربية يؤدي إلى فرض نظام حكم متزمت يحرِّم شرب الكحول وأكل لحوم الخنزير حتى على المسيحيين؛ لذلك لا بد للمسلمين من طمأنة جيرانهم غير المسلمين من أن الإسلام يكفل تعدد الديانات، والمشكلة هي أن الغرب قد ألغى فعليًا كل الديانات الأخرى وبقي موحِّد الديانة على مدى الخمس مئة عام الأخيرة منذ طرد اليهود والمسلمين من إسبانيا.

لقد انعكس هذا على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية بأنه لا خلاص خارج الكنيسة extra eccesiam nulla salus، وعلى الاتفاق الحاسم بين البروتستانت والكاثوليك بأن مذهب الحاكم هو مذهب الجميع cuius religio, eius religio.

لذا فإن الغربيين يفترضون تلقائيًا بأن المسلمين في الغرب لو استطاعوا لفرضوا الإسلام بالقوة؛ ولهذا من الضروري أن تشير الدعوة إلى أن العالم الإسلامي - وعلى الأخص في مصر ولبنان وجميع أرجاء الخلافة العثمانية سابقًا - كان يتميز دائمًا بتعدد الديانات استنادًا إلى نصوص

القرآن الكريم. وفي هذا الصدد، يجب على المسلمين ما استطاعوا إبراز الآية ٢٥٦ من سورة البقرة - ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [١] - والآية ٤٨ من سورة المائدة[٢]، والتي تثبت بوضوح التعددية الدينية في الإسلام، وهو أمر يصعب تصديقه على المسيحيين والملحدين على حد سواء، ونحن عندما نذكر هذه الآية إنما نبرز أنفسنا في طليعة الحركة المسكونية العالمية.

نحن عندما نذكر هذه الآية لا نوحي ضمنًا بأن كل الديانات متساوية، ولكننا نقبل حقيقة أنه ما من ديانة لا تحمل بعض الحقيقة، وأن هناك طرقاً مختلفة للوصول إلى الله كما أدرك الصوفيون، وأن الإسلام هو الدين الذي يحتوي على أكبر قدر من الحقيقة، وهو الدين الأكثر نقاءً بين الديانات الأخرى فهو دين التوحيد.

---

(١) القرآن الكريم، البقرة: ٢٥٦ ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(٢) القرآن الكريم، المائدة: ٤٨ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وخز ضمير حول الإخاء الإسلامي: عندما نتناول الأسس التي تقوم عليها مسؤوليات المسلمين المحليين في الغرب عن الدعوة الإسلامية، لا يمكن استبعاد المساعدات الرسمية والمالية التي تقدمها لهم الدول الإسلامية الشرقية الغنية؛ فالقوى الغربية إبان عصور الإمبريالية لم تشعر بأي وخز ضمير عند التدخل لنصرة الأقليات المسيحية، ومع أن القانون الدولي قد تغير، لا يزال بمقدور الحكومات الإسلامية أن تظهر اهتمامها بالمصالح الدينية لمواطنيها في الخارج، ويظهر التأثير الإيجابي عندما يتعاون السفراء المسلمون في عواصم غربية على بناء وصيانة المساجد والمدارس والأكاديميات الإسلامية، أو عندما يدعون غير المسلمين إلى مائدة الإفطار في شهر رمضان المبارك.

لا يمكن للبنية التحتية التي يحتاجها الإسلام أن تنمو دون مساهمات من الخارج، كما حدث في النمسا وبلجيكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا. وهناك تأثير سلبي لهذه المساهمات بالطبع وهو أن "من يدفع يأمر". ومن غير المفيد أن يظهر الإسلام في الغرب كما لو كان "دينًا عربيًا" أو "دين

العمال المهاجرين". فمعظم الذين يرغبون في اعتناق الإسلام لا يريدون التحول إلى أشباه عرب، فإن كان جبرائيل عليه السلام قد كلّم النبي ﷺ بلسان عربي، وإن كانت أماكن المسلمين المقدسة موجودة في أرض العرب، فذلك لا يعني أن على من يعتنق الإسلام أن يلبس ويأكل وينظف أسنانه مثلما كان العربي القريشي يلبس ويأكل وينظف أسنانه في القرن السابع الميلادي. فنقل هذه الفكرة يعد دعوة إلى إقامة أحياء أقليات إسلامية منطوية على نفسها في الغرب.

الخلاصة:

كيف يجب أن لا نجيب؟

أولاً، يتحمس بعض المسلمين الغربيين والعمال الشرقيين المهاجرين في سعيهم للفوز بقبول الغرب للإسلام، إلى درجة أنهم - بدلاً من "أسلمة" الغرب - يتسببون في "غربنة" الإسلام. وتكون المحصلة النهائية لهذا الاتجاه "إسلام أوروبي"، أي دين فيه الكثير من العناصر الأوروبية ونزر يسير من الإسلام. ويروج لهذه الفكرة في الغالب ما يسمى بـ"المسلمين المثقفين"، أي أولئك المسلمين الذين لا يصلون أو يصومون أو

يؤدون فريضة الحج، ولكنهم يدعون أن قلوبهم عامرة بالإيمان بالله.

مثل هؤلاء الناس، ومنهم بسام الطيبي[١] يشتكون عادة من أن الإسلام لم يتمكن من إصلاح وتنوير نفسه أسوة بالنموذج الأوروبي، وأنه يتوجب على الإسلام اليوم أن يلحق بركب الحضارة بإصلاح نفسه كما فعل كالفين Calvin[٢] ولوثر Luther[٣] وأتباع العقلانية الحديثة. ولكن على الرغم من أن الإسلام قد مر مؤخراً في عصور مظلمة، إلا أن هذا الاقتراح يعد مغالطة كبرى. فالإسلام في جوهره إصلاح: وهو أول محاولة في التاريخ لإصلاح النصرانية بتصحيح نظرتها إلى المسيح عليه السلام والثالوث المقدس والخلاص على الصليب والخطيئة الموروثة.

---

(١) أزمة الإسلام الحديث، بسام الطيبي، سالت لايك ستي، يوتاه، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩١، ص ١٨٥ .

(٢) جون كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) بروتستانتي فرنسي، مؤسسة المذهب الكالفيني الذي يشدد على قدرة الله اللامتناهية وفساد الإنسان التام خارج رحمة الله .

(٣) مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦)، بروتستانتي ألماني، مؤسس المذهب اللوثري (والذي يدعي بأن عدد أتباعه ٨٠ مليون)، الاعتقاد بأن الإنجيل هو الشريعة الوحيدة للمؤمنين وأن لا سبيل إلى الخلاص إلا بالإيمان بالمسيح.

ثانيًا، لم يكن العالم الإسلامي أبدًا مجبرًا على تخليص نفسه من النفوذ الخانق للقساوسة (فهو غير موجود أصلاً) أو كبت اللاهوتية (وهي غير موجودة أصلاً). ففي عصرنا الحاضر فصل المسلمون دائماً بين الدين والدولة.

ويصعب جدًا بالطبع الطلب من المسلمين اتباع نموذج تقدم وحداثة ينظر إليه الغرب نفسه اليوم نظرة تشكك، وإدخال المسلمين في منحدر زلق جدًا سبق للغرب وأن انزلق فيه منتقلاً عبره من العقلانية إلى الإلحاد؛ فالغرب هو من أخطأ على الطريق إلى الدنيوية وليس بقية العالم. ولم تكتب نجاةٌ أبدًا لأي حضارة تحولت إلى الإلحاد، ولم يسبق لأي حضارة أن أقبلت بكليتها على اعتناق الإلحاد مذهبًا مثلما اعتنقه الغرب.

ظاهرة المثقفين المسلمين، بمن فيهم العلويين الأتراك في الغرب، ظاهرة ضارة لسبب آخر، فالمسلمون بالاسم فقط يسهل انقيادهم للحكومات الغربية، فهم لا يتوقفون عن العمل لأداء الصلاة، ولا يصومون، وهم يأكلون ويشربون أي شيء، ولا يرغبون في أداء فريضة الحج، ولا يريدون بناء مساجد أو

الآذان للصلاة من مآذنهم، وهم لا يرغبون في الذبح على الطريقة الإسلامية، أو ارتداء ملابس إسلامية، أو دفن موتاهم على الطريقة الإسلامية. راحة بال ما بعدها راحة!

المشكلة هي أن أولئك المسلمين السنة الذين يطالبون بكل هذه الأشياء أصبحوا يظهرون اليوم بمظهر المتطرفين المتزمتين المتعصبين، إن لم يكن بمظهر الإرهابيين. ولا بد للحكومات الغربية من أن تسأل في يأسها "أفلا تتعقلوا كأولئك المسلمين الآخرين؟".